سلسلة الآداب الإسلامية

الصلاة التي هي قرة العين

لأبي عبد الرحمن
د. محمد بن محمود بن إبراهيم عطية

مؤسسة الجليمي للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى لمؤسسة الجليمي

١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م

رقم الإيداع:	٢٠١٥/١١٥٤٨
الترقيم الدولي:	I.S.B.N: ٩٧٨-٩٧٧-٨٥١٩٣-٦-٥

مؤسسة الجليمي للنشر والتوزيع

---

٨١ شارع البستان (عبد السلام عارف سابقًا)

تقاطع شارع الجمهورية- عابدين- القاهرة

هاتف: ٢٣٩٣٥١٩٠ - ٠١٠٠٦٧٥٦٧٣٩ - ٠١١١٩٩٠٣٨٣٥

ين

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة

رب يسر وأعن وتقبل

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، نبينا محمد وعلى آله وصحبه، أما بعد:

فإن الصلاة صلة بين العبد وربه، وهي عمود الإسلام، وثاني أركانه العظام، وهي آخر ما يفقد من هذا الدين، وأول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة؛ فإن صلحت فقد أفلح وأنجح، وإن فسدت فقد خاب وخسر؛ وقد افتتح الله صفات المؤمنين الواردة في سورة (المؤمنون) بقوله ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٢]، واختتمها بقوله ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [المؤمنون: ٩]، ثم عقب على هذه الصفات بقوله سبحانه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠، ١١].

ولأهميتها كانت آخر وصايا رسول الله ﷺ فعَنْ أَنَسٍ

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَتْ عَامَّةُ وَصِيَّةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ حِينَ حَضَرَهُ الْمَوْتُ: «**الصَّلَاةَ، وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ**» حَتَّى جَعَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُغَرْغِرُ بِهَا صَدْرُهُ، وَمَا يَكَادُ يُفِيضُ بِهَا لِسَانُهُ(١).

وسيأتي الحديث عن أهمية الصلاة بشيء من التفصيل.

وها هنا أسئلة مهمة تتعلق بشأن الصلاة، وهي: كيف تكون الصلاة قرة عين للمسلم؟ كيف يشعر المسلم باللذة والفرح والسرور وهو في الصلاة؟ كيف يشعر بأن الصلاة ليست عليه ثقيلة؟ بل كيف يوقن أن الصلاة هي مفزعه إذا أَلَمَّ به شيء؟

فليس من كانت الصلاة- كما قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ- ربيعًا لقلبه، وحياة له وراحة، وقرة لعينه، وجلاء لحزنه، وذهابًا لهمه وغمه، ومفزعًا له إليه في نوائبه ونوازله؛ كمن هي سحت لجوارحه، وتكليف له، وثقل عليه؛ فهي كبيرة على هذا، وقرة عين وراحة لذلك.

قال تعالى: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا

(١) أحمد: ٢/ ١١٧، واللفظ له، والنسائي في الكبرى (٧٠٩٤، ٧٠٩٥)، وابن ماجة (٢٦٩٧)؛ ورواه أحمد: ٦/ ٢٩٠، ٣١١، والنسائي في الكبرى (٧٠٩٧، ٧٠٩٨، ٧١٠٠)، وابن ماجة (١٦٢٥) عن أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ۝٤٥ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَأَنَّهُمۡ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ٤٥، ٤٦]، فإنما كبرت على غير هؤلاء لخلو قلوبهم من محبة الله تعالى، وتكبيره وتعظيمه، والخشوع له، وقلة رغبتهم فيه، فإن حضور العبد في الصلاة، وخشوعه فيها، وتكميله لها، واستفراغه وسعه في إقامتها وإتمامها، على قدر رغبته في الله تعالى؛ قال الإمام أحمد في رواية مهنا بن يحيى: إنما حظهم من الإسلام على قدر حظهم من الصلاة، ورغبتهم في الإسلام على قدر رغبتهم في الصلاة؛ فاعرف نفسك يا عبد الله، واحذر أن تلقى الله ﷻ ولا قدر للإسلام عندك؛ فإن قدر الإسلام في قلبك كقدر الصلاة في قلبك؛ وليس حظ القلب العامر بمحبة الله وخشيته والرغبة فيه وإجلاله وتعظيمه من الصلاة، كحظ القلب الخالي الخراب من ذلك؛ فإذا وقف الاثنان بين يدي الله في الصلاة، وقف هذا بقلب مخبت خاشع له، قريب منه، سليم من معارضات السوء، قد امتلأت أرجاؤه بالهيبة، وسطع فيه نور الإيمان، وكشف عنه حجاب النفس ودخان الشهوات؛ فيرتع في رياض معاني القرآن، وخالط قلبه بشاشة الإيمان بحقائق الأسماء والصفات وعلوها وجمالها

وكمالها الأعظم، وتفرد الرب سبحانه بنعوت جلاله وصفات كماله، فاجتمع همه على الله، وقرت عينه به، وأحس بقربه من الله قربًا لا نظير له، ففرَّغ قلبه له، وأقبل عليه بكليته؛ وهذا الإقبال منه بين إقبالين من ربه، فإنه سبحانه أقبل عليه أولا، فانجذب قلبه إليه بإقباله؛ فلما أقبل على ربه حظي منه بإقبال آخر أتم من الأول(١).

لقد تكلم الفقهاء عن أهمية الصلاة، وشروطها، وأركانها، وسننها، وآدابها، في أبواب كثيرة.. جمعت كل ما يتعلق بالصلاة من حيث صحتها وصحة أدائها.

وتكلم العلماء- أيضًا- عن أسرارها، وخشوعها، وهو الأدب العام في الصلاة الذي هو روحها، ومحل القبول منها، إذ ليس للمرء من صلاته إلا ما عقل منها.

وحذَّر النبي ﷺ من عدم إتمام ركوعها وسجودها، ومن عدم الاطمئنان فيها.

وبيَّن النبي ﷺ أن للصلاة شيطان خاص اسمه (خنزب)،

(١) انظر (الصلاة وأحكامها) ص ١٤٠، ١٤١.

هو الذي يقوم بمحاولة إفساد الصلاة على من يصلي، ويحاول أن يلبس عليه قراءته؛ ففي صحيح مسلم عَنْ عُثْمَانَ بْنِ أَبِى الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ حَالَ بَيْنِي وَبَيْنَ صَلَاتِي وَقِرَاءَتِي يَلْبِسُهَا عَلَيَّ؛ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**ذَاكَ شَيْطَانٌ يُقَالُ لَهُ خِنْزِبٌ، فَإِذَا أَحْسَسْتَهُ فَتَعَوَّذْ بِاللَّهِ مِنْهُ، وَاتْفِلْ عَلَى يَسَارِكَ ثَلَاثًا**»؛ قَالَ فَفَعَلْتُ ذَلِكَ فَأَذْهَبَهُ اللهُ عَنِّى(١).

ولذلك يعاني المصلي من خواطر نفسه ووساوس الشيطان في الصلاة، معاناة تتفاوت بحسب جهاده، وحضور قلبه، وتدبره لما هو فيه من الصلاة تكبيرًا وتلاوة وتسبيحًا وذكرًا ودعاء.

فعلى المصلي أن يحرص على حضور قلبه وخشوعه في الصلاة، وأن يجاهد خواطر نفسه ووساوس الشيطان، ليخرج بأجر صلاته وأجر جهاده فيها؛ وإلا يفعل فربما ردت عليه صلاته، وهي تقول له: ضيعك الله كما ضيعتني.

---

(١) مسلم (٢٢٠٣).

واعلم- علمني الله وإياك الخير- أنك لست وحدك فيما تعاني من وساوس الشيطان وحديث النفس في الصلاة؛ ولكن العاقل هو من يجتهد في مجاهدة نفسه والشيطان ليكون من الفائزين؛ ومما يعينك- بعد استعانتك بالله تعالى- ما يلي:

١- فرِّغ القلب من الشواغل قبل الدخول في الصلاة.. واستعن على ذلك بذكر الله تعالى والاستغفار والدعاء.

٢- أكثر من هذا الدعاء دبر الصلاة: «**اللهُمَّ أَعنِي عَلى ذِكرِكَ، وشُكرِكَ، وحُسنِ عِبادَتِك**»؛ ومن هذا الدعاء «**اللهُمَّ يَا مُقلبَ القُلوبِ، ثَبتْ قَلبِي عَلى دِينِك**».

٣- اجتهد في يومك في التلاوة والذكر والاستغفار والدعاء، فإن ذلك يثبت القلب على الطاعة.

٤ – عليك بقيام الليل.. مع الدعاء في السجود.

٥ – عليك بكثرة الاستغفار.

٦- ذكر الإمام الغزالي أن قراءة الإخلاص والمعوذتين قبل الدخول في الصلاة يفيد في ذلك، ووجهه أن النبي قال في

المعوذتين: «**مَا سَأَلَ سَائِلٌ بِمِثْلِهِمَا، وَلَا اسْتَعَاذَ مُسْتَعِيذٌ**»(١).

٧- ثم تدبر ما تقول في الصلاة من تكبير، واستفتاح، وقرآن، وتسبيح، وتحميد، وذكر، ودعاء، وما فيها من تعظيم العلي العظيم الرحمن الرحيم.

ثم هذه رسالة سميتها (الصلاة التي هي قرة عين)، سيجد فيها القارئ ما يبين له كيف تكون الصلاة فرحه وسروره وقرة عينه؛ والله الكريم أسأل أن ينفع... آمين، وصلى الله وسلم وبارك على النبي محمد وعلى آله وصحبه.

وكتبه

أفقر العباد إلى عفو رب البرية

محمد بن محمود بن إبراهيم عطية

(١) رواه النسائي (٥٤٣٨) عن عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وإسناده حسن.

معنى الصلاة

الصلاة في اللغة: الدعاء، قال الله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٣]، أي: ادع لهم. وقال الأعشى:

تقول بنتي وقد قربت مرتحلًا   يا رب جَنِّب أبي الأوصابَ والوجعا

عليكِ مثل الذي صليتِ فاغتمضي   نومًا فإن لجنبِ المرءِ مضطجعا

والصلاة في الشرع: أقوال وأفعال مخصوصة، تبدأ بالتكبير، وتنتهي بالتسليم، بنية.

أهميــة الصــلاة

الصلاة خير موضوع، وهي الركن الثاني من أركان الإسلام، بعد شهادة التوحيد، وهي عمود الإسلام، ولا تقوم الخيمة إلا بعمودها؛ ولأهميتها وبيان خطرها فرضت في ليلة المعراج، فوق السماوات السبع، واستدعي لها رسول الله ﷺ، وقد جاء في بيان أهميتها وفضلها وخطرها أحاديث كثيرة؛ منها:

قَوْله ﷺ: «**وَالصَّلَاة نُور**»(١)، فَمَعْنَاهُ: أَنَّهَا تَمْنَع مِنْ

---

(١) جزء من حديث رواه مسلم (٢٢٣) عن أبي مالك الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الْمَعَاصِي، وَتَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاء وَالْمُنْكَر، وَتَهْدِي إِلَى الصَّوَاب، كَمَا أَنَّ النُّور يُسْتَضَاء بِهِ؛ فالصَّلاةُ نورٌ مطلق، فهي للمؤمنين في الدُّنيا نورٌ في قلوبهم وبصائرهم، تُشرِق بها قلوبُهم، وتستنير بصائرُهم ولهذا كانت قرَّة عين المتقين، كما كان النَّبيُّ ﷺ يقول: «**وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ**»(١)؛ وهي في الآخرة نورٌ للمؤمنين في ظلمات القيامة، وعلى الصراط، فإنَّ الأنوارَ تُقسم لهم على حسب أعمالهم؛ وروى أحمد وابن حبان عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ ذَكَرَ الصَّلَاةَ يَوْمًا فَقَالَ: «**مَنْ حَافَظَ عَلَيْهَا كَانَتْ لَهُ نُورًا وَبُرْهَانًا وَنَجَاةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ لَمْ يُحَافِظْ عَلَيْهَا لَمْ يَكُنْ لَهُ نُورٌ وَلَا بُرْهَانٌ وَلَا نَجَاةٌ، وَكَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَعَ قَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَأُبَيِّ بْنِ خَلَفٍ**»(٢). كَمَا يَكُون فِي الدُّنْيَا- أَيْضًا- عَلَى وَجْهه الْبَهَاء بِخِلَافِ مَنْ لَمْ يُصَلِّ، وَاَلله أَعْلَم.

---

(١) أحمد: ٣/ ١٢٨، ١٩٩، ٢٨٥، والنسائي (٣٩٣٩، ٣٩٤٠)، وأبو يعلى (٣٤٨٢، ٣٥٣٠)، عن أنس، وإسناده حسن؛ وصححه الحاكم على شرط مسلم: ٢/ ١٦٠، ووافقه الذهبي.

(٢) أحمد: ٢/ ١٦٩، والدارمي (٢٧٢١)، وابن حبان (١٤٦٧).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وإنما خص هؤلاء الأربعة بالذكر لأنهم من رؤوس الكفرة؛ وفيه نكتة بديعة، وهو أن تارك المحافظة على الصلاة إما أن يشغله ماله، أو ملكه، أو رياسته، أو تجارته؛ فمن شغله عنها ماله فهو مع قارون، ومن شغله عنها ملكه فهو مع فرعون، ومن شغله عنها رياسة ووزارة فهو مع هامان، ومن شغله عنها تجارته فهو مع أبي بن خلف(١).

ومنها ما رواه ابن ماجة عن أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: أَوْصَانِي خَلِيلِي ﷺ: «**أَنْ لَا تُشْرِكَ بِاَللَّهِ شَيْئًا وَإِنْ قُطِّعْت وَحُرِّقْت، وَأَنْ لَا تَتْرُكَ صَلَاةً مَكْتُوبَةً مُتَعَمِّدًا، فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ بَرِئَتْ مِنْهُ الذِّمَّةُ؛ وَلَا تَشْرَبَ الْخَمْرَ فَإِنَّهَا مِفْتَاحُ كُلِّ شَرٍّ**»؛ وله شاهد عند أحمد عن معاذ بن جبل قال: قال رسول الله ﷺ: «**وَلَا تَتْرُكَنَّ صَلَاةً مَكْتُوبَةً مُتَعَمِّدًا، فَإِنَّ مَنْ تَرَكَ صَلَاةً مَكْتُوبَةً مُتَعَمِّدًا فَقَدْ بَرِئَتْ مِنْهُ ذِمَّةُ اللَّهِ**»(٢).

ومنها ما رواه معاذ بن جبل رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ أنه قال:

---

(١) انظر (الصلاة) لابن القيم ص٦٢.

(٢) رواه ابن ماجة (٤٠٣٤)، وشاهده جزء من حديث رواه أحمد: ٥/ ٢٣٨؛ قال الألباني في صحيح الترغيب: حسن لغيره.

«**رَأْسُ الْأَمْرِ الْإِسْلَامُ، وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ**»(١)، فالصلاة من الإسلام بمنزلة العمود الذي تقوم عليه الخيمة، وفي هذا بيان أهميتها، فالخيمة تسقط بسقوط عمودها، ولا تقوم إلا به، وإن كان لها ألف وتد.

وفي (موطأ مالك) عَنْ نَافِعٍ مَوْلَى عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَتَبَ إِلَى عُمَّالِهِ: إِنَّ أَهَمَّ أَمْرِكُمْ عِنْدِي الصَّلَاةُ، فَمَنْ حَفِظَهَا وَحَافَظَ عَلَيْهَا حَفِظَ دِينَهُ؛ وَمَنْ ضَيَّعَهَا فَهُوَ لِمَا سِوَاهَا أَضْيَعُ(٢). وهذا يدل على أهمية الصلاة، وفهم هؤلاء الكرام لهذه الأهمية.

وعن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**إِنَّ أَوَّلَ مَا يُحَاسَبُ بِهِ الْعَبْدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ عَمَلِهِ صَلَاتُهُ، فَإِنْ صَلُحَتْ فَقَدْ أَفْلَحَ وَأَنْجَحَ، وَإِنْ فَسَدَتْ فَقَدْ خَابَ وَخَسِرَ**»(٣)، وفي حديث

---

(١) أحمد: ٥/ ٢٣١، والترمذي (٢٦١٦) وصححه، والنسائي في الكبرى (١١٣٩٤)، وابن ماجة (٣٩٧٣)؛ ورواه الطبراني في الكبير: ٢٠/ ١٣٠، ١٣١ (٢٦٦)، والحاكم: ٢/ ٤١٢، ٤١٣ وصححه على شرطيهما، ووافقه الذهبي.

(٢) الموطأ: ١/ ٦ (٦).

(٣) الترمذي (٤١٣)، والنسائي (٤٦٥) وهذا لفظهما، ورواه أبو داود (٨٦٤)، وابن ماجة (١٤٢٥).

أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**فَإِنْ صَلَحَتْ صَلَحَ لَهُ سَائِرُ عَمَلِهِ، وَإِنْ فَسَدَتْ فَسَدَ سَائِرُ عَمَلِهِ**»(١)؛ وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ: «**الصَّلَاةُ ثَلَاثَةُ أَثْلَاثٍ، الطُّهُورُ ثُلثٌ، وَالرُّكُوعُ ثُلُثٌ، وَالسُّجُودُ ثُلُثٌ؛ فَمَنْ أَدَّاهَا بِحَقِّهَا قُبِلَتْ مِنْهُ، وَقُبِلَ مِنْهُ سَائِرُ عَمَلِهِ، وَمَنْ رُدَّتْ عَلَيْهِ صَلَاتُهُ، رُدَّ عَلَيْهِ سَائِرُ عَمَلِهِ**»(٢).

وواضح من الحديث أهمية الصلاة، إذ هي أول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة، وهي معيار الحساب للأعمال الأخرى.

ويدلك على عظيم فضلها وقدرها ما رواه الشيخان عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهْرًا بِبَابِ أَحَدِكُمْ، يَغْتَسِلُ مِنْهُ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ، هَلْ يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ؟**»؛ قَالُوا: لَا يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ؛ قَالَ: «**فَذَلِكَ مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ يَمْحُو اللَّهُ بِهِنَّ الْخَطَايَا**»(٣).

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط (١٨٥٩).

(٢) رواه البزار في (مسنده): ١/ ١٧٧ (٣٤٩)، وحسنه المنذري في (الترغيب والترهيب)، والهيثمي في (مجمع الزوائد)، وقال الألباني في (الصحيحة رقم ٢٥٣٧): حسن صحيح.

(٣) البخاري (٥٠٥)، ومسلم (٦٦٧)، والدرن: الوسخ.

ويدل على عظيم خطر الصلاة ما رواه مسلم عن جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ تَرْكُ الصَّلَاةِ**»(١)؛ وروى أحمد وأهل السنن إلا أبا داود عَنْ بُرَيْدَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**الْعَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ الصَّلَاةُ، فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ**»(٢).

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: وأما تارك الصلاة؛ فإن كان منكرًا لوجوبها فهو كافر بإجماع المسلمين، خارج من ملة الإسلام، إلا أن يكون قريب عهد بالإسلام، ولم يخالط المسلمين مدة يبلغه فيها وجوب الصلاة عليه؛ وان كان تركه تكاسلًا مع اعتقاده وجوبها- كما هو حال كثير من الناس- فقد اختلف العلماء فيه؛ فذهب مالك والشافعي- رحمهما الله- والجماهير من السلف والخلف إلى أنه لا يكفر، بل يفسق، ويستتاب، فإن تاب وإلا قتلناه حدًّا، كالزاني المحصن، ولكنه يقتل بالسيف؛ وتأولوا قوله ﷺ: «**بَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ الْكُفْرِ: تَرْكُ**

(١) مسلم (٨٢).

(٢) أحمد: ٥/ ٣٤٦، والترمذي (٢٦٢١) وصححه، والنسائي (٤٦٣)، وابن ماجة (١٠٧٩).

الصَّلَاةِ» على معنى أنه يستحق بترك الصلاة عقوبة الكافر، وهى القتل؛ أو أنه محمول على المستحِلِّ، أو على أنه قد يؤول به إلى الكفر، أو أن فعله فعل الكفار؛ والله أعلم.

وذهب جماعة من السلف إلى أنه يكفر، وهو مروى عن على بن أبى طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهو إحدى الروايتين عن أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللَّهُ، وبه قال عبد الله بن المبارك، وإسحاق بن راهويه، وهو وجه لبعض أصحاب الشافعي.

وذهب أبو حنيفة وجماعة من أهل الكوفة والمزني صاحب الشافعي- رحمهم الله- إلى أنه لا يكفر، ولا يقتل، بل يعزر ويحبس حتى يصلي(١).

فهذه الأحاديث - وغيرها - تدل على أهمية الصلاة، وعظيم أمرها، وعلو منزلتها في الإسلام؛ مما يدعو العاقل أن ينظر في صلاته وشأنها، وشأنه معها، ويحاول أن يرقى إلى أن تكون الصلاة قرة عين له، ليدخل بذلك جنة الدنيا الموصولة- إن شاء الله- بجنة الآخرة.

---

(١) انظر (شرح النووي على مسلم): ٢/ ٧١؛ بتصرف، وقد ناقش ابن القيم في كتابه (الصلاة) هذه الآراء مناقشة علمية رائعة، فليرجع إليه من شاء.

مراتب الناس في الصلاة

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الناس في الصلاة على مراتب خمسة:

أحدها: مرتبة الظالم لنفسه المفرط، وهو الذي انتقص من وضوئها، ومواقيتها، وحدودها، وأركانها.

الثاني: من يحافظ على مواقيتها وحدودها وأركانها الظاهرة ووضوئها، لكن قد ضيع مجاهدة نفسه في الوسوسة، فذهب مع الوساوس والأفكار.

الثالث: من حافظ على حدودها وأركانها، وجاهد نفسه في دفع الوساوس والأفكار، فهو مشغول بمجاهدة عدوه، لئلا يسرق صلاته، فهو في صلاة وجهاد.

الرابع: من إذا قام إلى الصلاة أكمل حقوقها وأركانها وحدودها، واستغرق قلبه مراعاة حدودها وحقوقها، لئلا يضيع شيئًا منها، بل همه كله مصروف إلى إقامتها كما ينبغي، وإكمالها وإتمامها، قد استغرق قلبه شأن الصلاة وعبودية ربه تبارك وتعالى فيها.

الخامس: من إذا قام إلى الصلاة قام إليها كذلك، ولكن مع هذا قد أخذ قلبه ووضعه بين يدي ربه عَزَّ وَجَلَّ، ناظرًا بقبله إليه،

مراقبًا له، ممتلئًا من محبته وعظمته، كأنه يراه ويشاهده، وقد اضمحلت تلك الوساوس والخطرات، وارتفعت حجبها بينه وبين ربه؛ فهذا بينه وبين غيره في الصلاة أفضل وأعظم مما بين السماء والأرض، وهذا في صلاته مشغول بربه ﷻ، قرير العين به.

فالقسم الأول معاقب، والثاني محاسب، والثالث مكفر عنه، والرابع مثاب، والخامس مقرَّب من ربه؛ لأن له نصيبًا ممن جعلت قرة عينه في الصلاة، فمن قرَّت عينه بصلاته في الدنيا قرَّت عينه بقربه من ربه ﷻ في الآخرة، وقرَّت عينه- أيضًا- به في الدنيا؛ ومن قرَّت عينه بالله قرَّت به كل عين، ومن لم تقرَّ عينه بالله تعالى تقطعت نفسه على الدنيا حسرات؛ وقد روي أن العبد إذا قام يصلي قال الله ﷻ: (ارفعوا الحجب فإذا التفت قال: أرخوها)؛ وقد فسر هذا الالتفات بالتفات القلب عن الله ﷻ إلى غيره، فإذا التفت إلى غيره أرخى الحجاب بينه وبين العبد، فدخل الشيطان، وعرض عليه أمور الدنيا، وأراه إياها في صورة المرآة؛ وإذا أقبل بقلبه على الله ولم يلتفت، لم يقدر الشيطان على أن يتوسط بين الله تعالى وبين ذلك القلب،

وإنما يدخل الشيطان إذا وقع الحجاب، فإن فرَّ إلى الله تعالى، وأحضر قلبه، فرَّ الشيطان؛ فإن التفت حضر الشيطان؛ فهو هكذا شأنه وشأن عدوه في الصلاة[١].

آداب الصلاة

المصلون من المسلمين كثيرون، ولكن الخاشعين قليل؛ ومن دواعي الخشوع في الصلاة أن يقيمها بحسن وضوئها، وإتمام ركوعها وسجودها، وسائر أركانها، مع حضور القلب فيها خاضعًا منيبًا متدبرًا معاني التكبير، ومعاني الآيات، ومعاني التسبيح، ومعاني الأدعية في صلاته، من الاستفتاح وحتى السلام.

فهذه آداب ظاهرة وباطنة، دلَّت عليها أحاديث النبي ﷺ، ولابد للمسلم أن يسعى في أن يستكملها في صلاته، ليكون من المصلين حقًّا، يستشعر لذة العبادة، ويشعر بالراحة في صلاته، وتكون الصلاة له قرة عين.

في الصحيحين عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَدَخَلَ رَجُلٌ فَصَلَّى، فَسَلَّمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَرَدَّ،

---

(١) انظر (الوابل الصيب) ص ٣٨ – دار الكتاب العربي.

وَقَالَ: «**ارْجِعْ فَصَلِّ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ**» فَرَجَعَ يُصَلِّي كَمَا صَلَّى، ثُمَّ جَاءَ فَسَلَّمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «**ارْجِعْ فَصَلِّ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ**» ثَلَاثًا.. فَقَالَ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا أُحْسِنُ غَيْرَهُ، فَعَلِّمْنِي؛ فَقَالَ: «**إِذَا قُمْتَ إِلَى الصَّلَاةِ فَكَبِّرْ، ثُمَّ اقْرَأْ مَا تَيَسَّرَ مَعَكَ مِنْ الْقُرْآنِ، ثُمَّ ارْكَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ رَاكِعًا، ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَعْتَدِلَ قَائِمًا، ثُمَّ اسْجُدْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ سَاجِدًا، ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ جَالِسًا؛ وَافْعَلْ ذَلِكَ فِي صَلَاتِكَ كُلِّهَا**» هذا لفظ البخاري(١).

في هذا الحديث الشريف جملة من الآداب التي لابد أن يراعيها المصلي في صلاته، حتى تكون صلاته صحيحة في ذاتها أولًا، ثم تكون محلا للقبول ثانيًا.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فيه دليل على تعين التكبير للدخول في الصلاة، وأن غيره لا يقوم مقامه؛ وهو التكبير المعهود في قوله: «**وَتَحْرِيمُهَا التَّكْبِيرُ**»(٢)؛ كما يتعين الوضوء، واستقبال القبلة،

---

(١) البخاري (٧٢٤، ٧٦٠، ٥٨٩٧، ٦٢٩٠)، ومسلم (٣٩٧).

(٢) أحمد: ١/ ١٢٣، ١٢٩، وأبو داود (٦١، ٦١٨)، والترمذي (٣)، وابن ماجة (٢٧٥) عن علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ؛ ورواه الترمذي (٢٣٨)، وابن ماجة (٢٧٦) عن أبي سعيد رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

وعلى وجوب القراءة، والتقييد بـ «**مَا تَيَسَّرَ**» لا ينفي تعيُّن الفاتحة بدليل آخر؛ فإنَّ الذي قال هذا هو الذي قال: «**مَنْ صَلَّى صَلَاةً لَمْ يَقْرَأْ فِيهَا بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ فَهْيَ خِدَاجٌ**»(١)؛ وهو الذي قال: «**لَا صَلاةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ**»(٢)، ولا تضرب سنته بعضها ببعض.

وفيه دليل على وجوب الطمأنينة، وأن من تركها لم يفعل ما أُمر به، فيبقى مطالبًا بالأمر، ولا يكفي مجرد الطمأنينة في ركن الرفع حتى تعتدل قائمًا؛ فقوله: «**فَإِذَا رَفَعْتَ فَأَقِمْ صُلْبَكَ حَتَّى تَرْجِعَ الْعِظَامُ إِلَى مَفَاصِلِهَا**»(٣)، صريح في وجوب الرفع، والاعتدال منه، والطمأنينة فيه.

ولا ينفي هذا وجوب التسبيح في الركوع والسجود، والتسميع والتحميد في الرفع بدليل آخر؛ فإن الذي قال هذا وأمر به هو الذي أمر بالتسبيح في الركوع، فقال لما نزلت: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾، قال: «**اجْعَلُوهَا فِي**

(١) رواه مسلم (٣٩٥) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) رواه البخاري (٧٢٣)، مسلم (٣٩٤) عن عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٣) أحمد: ٤/ ٣٤٠، وابن حبان (١٧٨٧) عن رفاعة الزرقي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

رُكُوعِكُمْ»(١).

وأمر بالتحميد في الرفع فقال: «**وَإِذَا قَالَ: سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، فَقُولُوا: رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ**»(٢)؛ فهو الذي أمرنا بالركوع، وبالطمأنينة فيه، وبالتسبيح والتحميد؛ وقال في الرفع من السجود: «**ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ جَالِسًا**»، وفي لفظ: «**حَتَّى تَعْتَدِلَ جَالِسًا**»؛ فلم يكتف بمجرد الرفع حتى تحصل الطمأنينة والاعتدال؛ ففيه أمر بالرفع، والطمأنينة فيه، والاعتدال(٣).

وروى أحمد وأهل السنن عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الْبَدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَا تُجْزِئُ صَلَاةُ الرَّجُلِ حَتَّى يُقِيمَ ظَهْرَهُ فِي الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ**»(٤)؛ وهذا نص صريح في أن الرفع

---

(١) أحمد: ٤/ ١٥٥، وأبو داود (٨٦٩)، وابن ماجة (٨٨٧) عن عقبة ابن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصححه ابن حبان كما في (موارد الظمآن): ١/ ١٣٥، والحاكم (٨١٨، ٣٧٨٣) ووافقه الذهبي في الموضع الثاني.

(٢) رواه البخاري (٦٥٧، ٦٩٩، ٧٠٠، ٧٧٢)، ومسلم (٤١١) عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ورواه البخاري (٦٨٩، ٧٠١)، ومسلم (٤٠٩) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) انظر (الصلاة) لابن القيم ص ١١٩، ١٢٠، باختصار وتصرف.

(٤) أحمد: ٤/ ١١٩، ١٢٢، وأبو داود (٨٥٥)، والترمذي (٢٦٥) وقال: =

من الركوع، وأن السجود، والاعتدال فيه، والطمأنينة فيه، ركن لا تصح الصلاة إلا به.

ونهى النبي ﷺ عن مشابهة الحيوانات في شيء من أمر الصلاة؛ فروى أحمد وأهل السنن إلا الترمذي عَنْ عَبْدِالرَّحْمَنِ ابْنِ شِبْلٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ «**يَنْهَى عَنْ ثَلَاثٍ: عَنْ نَقْرَةِ الْغُرَابِ، وَعَنْ افْتِرَاشِ السَّبُعِ، وَأَنْ يُوطِنَ الرَّجُلُ الْمَقَامَ كَمَا يُوطِنُ الْبَعِيرُ**»(١)؛ فتضمن الحديث النهي في الصلاة عن التشبه بالحيوانات: بالغراب في النقرة، وبالسبع بافتراشه ذراعية في السجود، وبالبعير في لزومه مكانًا معينًا من المسجد يتوطنه كما يتوطن البعير.

وفي مسند أحمد عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: أَمَرَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ بِثَلَاثٍ، وَنَهَانِي عَنْ ثَلَاثٍ: أَمَرَنِي بِرَكْعَتَيْ الضُّحَى كُلَّ يَوْمٍ، وَالْوِتْرِ قَبْلَ النَّوْمِ، وَصِيَامِ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ؛ وَنَهَانِي

= حسن صحيح، والنسائي (١٠٢٧، ١١١١)، وابن ماجة (٨٧٠)؛ وله شواهد عن جابر وأبي هريرة، وعلي بن شيبان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ.

(١) أحمد: ٢/ ٤٢٨، ٤٤٤، وأبو داود (٨٦٢)، والنسائي (١١١٢)، وابن ماجة (١٤٢٩).

عَنْ نَقْرَةٍ كَنَقْرَةِ الدِّيكِ، وَإِقْعَاءٍ كَإِقْعَاءِ الْكَلْبِ، وَالْتِفَاتٍ كَالْتِفَاتِ الثَّعْلَبِ(١).

والإِقْعاء: أن يُلْصِقَ الرجُل أَلْيَتَيه بالأرض، ويَنْصِب ساقَيه وفَخِذَيه، ويَضَع يديه على الأرض كما يُقْعِي الكلْب.

وروى مسلم عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «**مَا لِي أَرَاكُمْ رَافِعِي أَيْدِيكُمْ كَأَنَّهَا أَذْنَابُ خَيْلٍ شُمْسٍ! اسْكُنُوا فِي الصَّلَاةِ**»(٢).

و**شُمْس**: جمع شموس؛ وهي التي لا تستقر، بل تضرب وتتحرك بأذنابها وأرجلها.

فهذه سبع حيوانات نهى ﷺ عن التشبه بها.

وقد وصف ﷺ صلاة النقَّار بأنها صلاة المنافق، ففي صحيح مسلم عَنِ أَنَسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**تِلْكَ صَلَاةُ الْمُنَافِقِ؛ يَجْلِسُ يَرْقُبُ الشَّمْسَ، حَتَّى إِذَا كَانَتْ بَيْنَ قَرْنَيِ الشَّيْطَانِ، قَامَ فَنَقَرَهَا أَرْبَعًا، لَا يَذْكُرُ اللهَ فِيهَا**

(١) أحمد: ٢/ ٣١١، وحسنه المنذري في (الترغيب والترهيب).

(٢) رواه مسلم (٤٣٠).

إِلَّا قَلِيلًا»[١]. وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢].

فهذه ست صفات في الصلاة من علامات النفاق: الكسل عند القيام إليها، ومراءاة الناس في فعلها، وتأخيرها، ونقرها، وقلة ذكر الله فيها، والتخلف عن جماعتها.

وعَنْ أَبِي صَالِحٍ الأَشْعَرِيِّ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللهِ الأَشْعَرِيِّ، قَالَ: صَلَّى رَسُولُ اللهِ ﷺ بِأَصْحَابِهِ، ثُمَّ جَلَسَ فِي طَائِفَةٍ مِنْهُمْ، فَدَخَلَ رَجُلٌ، فَقَامَ يُصَلِّي، فَجَعَلَ يَرْكَعُ، وَيَنْقُرُ فِي سُجُودِهِ، فَقَالَ النَّبِيّ ﷺ: «**أَتَرَوْنَ هَذَا؟! مَنْ مَاتَ عَلَى هَذَا، مَاتَ عَلَى غَيْرِ مِلَّةِ مُحَمَّدٍ، يَنْقُرُ صَلَاتَهُ كَمَا يَنْقُرُ الْغُرَابُ الدَّمَ، إِنَّمَا مَثَلُ الَّذِي يَرْكَعُ وَيَنْقُرُ فِي سُجُودِهِ، كَالْجَائِعِ، لَا يَأْكُلُ إِلَّا التَّمْرَةَ وَالتَّمْرَتَيْنِ، فَمَاذَا تُغْنِيَانِ عَنْهُ؛ فَأَسْبِغُوا الْوُضُوءَ، وَيْلٌ لِلأَعْقَابِ مِنَ النَّارِ، أَتِمُّوا الرُّكُوعَ وَالسُّجُودَ**»؛ قَالَ أَبُو صَالِحٍ: فَقُلْتُ لأَبِي عَبْدِ اللهِ الأَشْعَرِيِّ: مَنْ حَدَّثَكَ بِهَذَا الْحَدِيثِ؟ فَقَالَ: أُمَرَاءُ الأَجْنَادِ:

---

(١) رواه مسلم (٦٢٢).

عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ، وَخَالِدُ بْنُ الوَلِيدِ، ويَزِيدُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ، وَشُرَحْبِيلُ بْنُ حَسَنَةَ، كُلُّ هَؤُلَاءِ سَمِعُوهُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ(١). فأخبر أن نقَّار الصلاة لو مات، مات على غير الإسلام.

وروى البخاري عَنْ زَيْد بْنِ وَهْبٍ قَالَ: رَأَى حُذَيْفَةُ رَجُلًا لَا يُتِمُّ الرُّكُوعَ وَالسُّجُودَ؛ قَالَ: مَا صَلَّيْتَ، وَلَوْ مُتَّ مُتَّ عَلَى غَيْرِ الْفِطْرَةِ الَّتِي فَطَرَ اللهُ مُحَمَّدًا ﷺ(٢).

وقد جعل رسول الله ﷺ لص الصلاة وسارقها شرًّا من لص الأموال وسارقها؛ ففي المسند من حديث أَبِي قَتَادَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَسْوَأُ النَّاسِ سَرِقَةً الَّذِي يَسْرِقُ مِنْ صَلَاتِهِ**» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَكَيْفَ يَسْرِقُ مِنْ صَلَاتِهِ؟ قَالَ: «**لَا يُتِمُّ رُكُوعَهَا وَلَا سُجُودَهَا**»- أَوْ قَالَ: «**لَا يُقِيمُ صُلْبَهُ فِي الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ**»(٣)؛ ولا ريب أن لص الدين شرٌّ من لص الدنيا.

(١) رواه ابن خزيمة (٦٦٥)، وحسنه الألباني.

(٢) البخاري (٧٥٨).

(٣) أحمد: ٥/ ٣١٠، وصححه ابن خزيمة (٦٦٣)، وقال الألباني في (صحيح الترغيب): صحيح لغيره.

ليس للمرء من صلاته إلا ما عقل منها

ما ذكرنا من الآداب يتعلق بظاهر الصلاة، وهناك آداب أخرى تتعلق بباطن المصلي؛ وتأمل – أيها المسلم– ما روى أحمد وأبو داود والنسائي عَنْ عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ الرَّجُلَ لَيَنْصَرِفُ وَمَا كُتِبَ لَهُ إِلَّا عُشْرُ صَلَاتِهِ، تُسْعُهَا، ثُمُنُهَا، سُبُعُهَا، سُدُسُهَا، خُمُسُهَا، رُبُعُهَا، ثُلُثُهَا، نِصْفُهَا**»(١)؛ وأَعمِل فكرَك في فهم هذه الكلمات، لتقف على خطورة الأمر؛ أين مرتبتك من هؤلاء؟ وهل ترضى لنفسك أن تخرج من صلاتك بعشر الأجر؟!

إن استحضار القلب مع الصلاة من قبل أن يدخل المسلم فيها بالتكبير، وتدبر كل أمر فيها من قول وفعل، ومعايشة المعاني العظيمة في أقوالها وأفعالها، حتى يخرج منها بالتسليم؛ هو العامل الرئيس في خشوع القلب، وتفاوت الأجر.

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: والعبد وإن أقام صورة الصلاة الظاهرة، فلا ثواب إلا على قدر ما حضر قلبه فيه منها؛ كما جاء في السنن

---

(١) أحمد: ٤/ ٣٢١، وأبو داود (٧٩٦)، والنسائي في الكبرى (٦١١، ٦١٢).

لأبي داود وغيره عن النبي ﷺ- ثم ذكر حديث عمَّار السابق- ثم قال: وقال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: ليس لك من صلاتك إلا ما عقلت منها.ا.هـ. وإذا غلب عليها الوسواس، ففي براءة الذمة منها، ووجوب الإعادة: قولان معروفان للعلماء؛ **أحدهما**: لا تبرأ الذمة؛ وهو قول أبي عبد الله بن حامد، وأبي حامد الغزالي وغيرهما(١).

والقول الثاني: تبرأ الذمة، ولا تجب الإعادة.. ولكن يفوت من الأجر الشيء العظيم.

مع عجائب معاني أذكار الصلاة

تعالوا بنا نعيش تلكم المعاني العظيمة من عجائب الأسماء والصفات، التي تحصل- كما يقول ابن القيم- لمن تفقه قلبه في معاني القرآن، وخالط بشاشة الإيمان بها قلبه، بحيث يرى لكل اسم وصفة موضعًا من صلاته، ومحلًّا منها:

فإنه إذا انتصب قائمًا بين يدي الرب تبارك وتعالى، شاهد بقلبه قيوميته، وإذا قال: (**الله أكبر**)، شاهد كبرياءه، وإذا قال:

(١) مجموع الفتاوى: ٣٢/ ٢١٧، ٢١٨.

«سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ، وَبِحَمْدِكَ، وَتَبَارَكَ اسْمُكَ، وَتَعَالَى جَدُّكَ وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ»(١)، شاهد بقلبه ربًّا منزهًا عن كل عيب، سالِمًا من كل نقص، محمودًا بكل حمد؛ فحمده يتضمن وصفه بكل كمال، وذلك يستلزم براءته من كل نقص.

(وتبارك اسمه) فلا يذكر على قليل إلا كثرة، ولا على خير إلا أنماه، وبارك فيه، ولا على آفة إلا أذهبها، ولا على شيطان إلا ردَّه خاسئًا داحرًا؛ وكمال الاسم من كمال مسماه، فإذا كان شأن اسمه الذي لا يضر معه شيء في الأرض ولا في السماء، فشأن المسمى أعلى وأجل.

(وتعالى جده)، أي: ارتفعت عظمته، وجلت فوق كل عظمة، وعلا شأنه على كل شأن، وقهر سلطانه على كل سلطان، فتعالى جده أن يكون معه شريك في ملكه وربوبيته، أو في إلهيته، أو في أفعاله، أو في صفاته، كما قال مؤمن الجن:

---

(١) أحمد: ٣/ ٥٠، ٦٩، وأبو داود (٧٧٥)، والترمذي (٢٤٢)، والنسائي (٨٩٩، ٩٠٠)، وابن ماجة (٨٠٤) عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصححه الألباني، وأحمد: ٦/ ، وأبو داود (٧٧٦)، والترمذي (٢٤٣)، وابن ماجة (٨٠٦) عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وصحح الألباني.

﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ [الجن: ٣]، فكم في هذه الكلمات من تجلٍّ لحقائق الأسماء والصفات على قلب العارف بها، غير المعطل لحقائقها.

وإذا استفتح بـ «**اللَّهُمَّ بَاعِدْ بَيْنِي وَبَيْنَ خَطَايَايَ، كَمَا بَاعَدْتَ بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ؛ اللَّهُمَّ نَقِّنِي مِنْ خَطَايَايَ، كَمَا يُنَقَّى الثَّوْبُ الأَبْيَضُ مِنَ الدَّنَسِ؛ اللَّهُمَّ اغْسِلْنِي مِنَ الْخَطَايَا، بِالْمَاءِ وَالثَّلْجِ وَالْبَرَدِ**»(١)؛ تعلق قلبه بالعفو الغفور الرحيم، وعاش مع هذه الأسماء راجيًا خائفًا: راجيًا أن يغفر الله له، ويعفو عنه، ويرحمه؛ خائفًا أن يأخذه الله بذنبه؛ فشاهد بقلبه ربًّا غفورًا رحيمًا عفوًا، مع إقراره بخطئه، واعترافه بذنبه، وتضرعه في أن يباعد الله بينه وبينه، وأن ينقيه من تبعاته، وأن يغسله من آثاره.

وكم في هذه الكلمات من معان يحتاج المصلي أن يتأملها ويعايشها.

وإذا قال: (**أعوذ بالله من الشيطان الرجيم**)، فقد آوى إلى ركنه الشديد، واعتصم بحوله وقوته من عدوه الذي يريد أن

---

(١) رواه مسلم (٥٩٨) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

يقطعه عن ربِّه، ويبعده عن قربه؛ ليكون أسوأ حالًا؛ فإنَّهُ أحرصُ ما يكونُ على العبدِ في مثلِ هذا المقامِ الذي هو أشرفُ مقاماته وأنفعها له في دنياه وآخرته، فهو أحرصُ شيء على صرفهِ عنه واقتطاعِهِ دونه بالبدن والقلب، فإن عجز عن اقتطاعه وتعطيله عنه بالبدن، اقتطع قلبَه وعطله عن القيام بين يدي الرَّبّ تعالى، فأُمِرَ العبدُ بالاستعاذةِ بالله منه ليسْلَمَ له مقامه بين يدي ربِّه، وليَحيى قلبُه ويستنير بما يتدبره ويتفهمه من كلام سيده، الذي هو سبب حياته ونعيمه وفلاحه؛ فالشيطان أحرصُ على اقتطاع قلبِه عن مقصودِ التلاوة.

ولمّا علمَ سبحانه جِدَّ العدوِّ وتفرُّغَه للعبد، وعجْزَ العبدِ عنه، أمره بأن يستعيذَ به سبحانه ويلتجئَ إليه في صرفه عنه، فيكفى بالاستعاذة مؤنةَ محاربته ومقاومته، فكأنه قيل له: لا طاقةَ لكَ بهذا العدو، فاستعذ بي واستجر بي أكْفِكَهُ، وأمنعك منه.

فإذا استعاذَ بالله منَ الشَّيْطانِ بَعُدَ منهُ، فأفضى القلب إلى معاني القرآن، ووقع في رياضه المونِقَةِ، وشاهد عجائبه التي تُبْهِرُ العقول، واستخرج من كنوزِهِ وذخائرِهِ ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت.

مع فاتحة الكتاب

فإذا قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وقف هنيهة يسيرة، ينتظر جواب ربِّه له بقوله: «**حَمِدَنِي عَبْدِي**»؛ فإذا قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، انتظر الجواب بقوله: «**أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي**»، فإذا قال: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ انتظر جوابه: «**مَجَّدَنِي عَبْدِي**».

فيا لذة قلبه، وقرة عينه، وسرور نفسه، بقول ربه: «**عَبْدِي**» ثلاث مرات؛ فوالله لولا ما على القلوب من دخان الشهوات، وغيم النفوس، لاستطيرت فرحًا وسرورًا بقول ربِّها وفاطرها ومعبودها: «**حَمِدَنِي عَبْدِي، وأَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي، ومَجَّدَنِي عَبْدِي**»؛ ثم يكون لقلبه مجال من شهود هذه الأسماء الثلاثة، التي هي أصول الأسماء الحسنى، وهي: (الله، والربُّ، والرحمن).

فشاهد قلبه من ذكر اسم (الله)- تبارك وتعالى- إلهًا معبودًا موجودًا مخوفًا، لا يستحق العبادة غيره، ولا تنبغي إلا له، قد عنت له الوجوه، وخضعت له الموجودات، وخشعت له الأصوات، ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤]، ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ

وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ [الروم: ٢٦].

وكذلك خلق السموات والأرض وما بينهما، وخلق الجن والإنس والطير والوحش والجنة والنار؛ وكذلك أرسل الرسل، وأنزل الكتب، وشرع الشرائع، وألزم العباد الأمر والنهي.

وشاهد من ذكر اسمه (ربِّ العالمين) قيومًا؛ قام بنفسه، وقام به كل شيء، فهو قائم على كل نفس بخيرها وشرها؛ قد استوى على عرشه، وتفرد بتدبير ملكه؛ فالتدبير كله بيديه، ومصير الأمور كلها إليه، فمراسيم التدبيرات نازلة من عنده، على أيدي ملائكته بالعطاء والمنع، والخفض والرفع، والإحياء والإماتة، والتوبة والعزل، والقبض والبسط، وكشف الكروب، وإغاثة الملهوفين، وإجابة المضطرين؛ ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩]، لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، ولا معقب لحكمه، ولا راد لأمره، ولا مبدل لكلماته؛ تعرج الملائكة والروح إليه، وتعرض الأعمال أول النهار وآخره عليه، فيقدر المقادير، ويوقت المواقيت، ثم يسوق المقادير إلى مواقيتها، قائمًا بتدبير ذلك

كله وحفظه ومصالحه.

ثم يشهد عند ذكر اسم (الرحمن) ﷻ ربًّا محسنًا إلى خلقه بأنواع الإحسان، متحبِّبًا إليهم بصنوف النعم، وسع كل شيء رحمة وعلمًا، وأوسع كل مخلوق نعمة وفضلًا، فوسعت رحمته كل شيء، ووسعت نعمته كل حي، فبلغت رحمته حيث بلغ علمه، فاستوى على عرشه برحمته، وخلق خلقه برحمته، وأنزل كتبه برحمته، وأرسل رسله برحمته، وشرع شرائعه برحمته، وخلق الجنة برحمته، والنار- أيضًا- برحمته؛ فإنها سوطه الذي يسوق به عباده المؤمنين إلى جنته، ويطهِّر بها أدران الموحدين من أهل معصيته، وسجنه الذي يسجن فيه أعداءه من خليقته.

فتأمل ما في أمره ونهيه، ووصاياه ومواعظه من الرحمة البالغة، والنعمة السابغة، وما في حشوها من الرحمة والنعمة، فالرحمة هي السبب المتصل منه بعباده، كما أن العبودية هي السبب المتصل منهم به؛ فمنهم إليه العبودية، ومنه إليهم الرحمة.

ومن أخص مشاهد هذا الاسم: شهود المصلي نصيبه من

الرحمة؛ الذي أقامه بها بين يدي ربِّه، وأهَّلَه لعبوديته ومناجاته، وأعطاه ومنع غيره، وأقبل بقلبه، وأعرض بقلب غيره، وذلك من رحمته به.

فإذا قال: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾، فهنا شهد المجد الذي لا يليق بسوى الملك الحق المبين، فيشهد ملِكًا قاهرًا، قد دانت له الخليقة، وعنت له الوجوه، وذلت لعظمته الجبابرة، وخضع لعزته كل عزيز، فيشهد بقلبه ملِكًا على عرش السماء مهيمنًا، لعزته تعنو الوجوه وتسجد، وإذا لم تُعَطَّل حقيقة صفة الملك أطلعته على شهود حقائق الأسماء والصفات التي تعطيلها تعطيل لملكه، وجحد له؛ فإن الملِك الحق التام الْمُلك لا يكون إلا حيًّا، قيومًا، سميعًا، بصيرًا، مدبِّرًا، قادرًا، متكلمًا، آمرًا ناهيًا، مستويًا على سرير مملكته؛ يرسل رسله إلى أقاصي مملكته بأوامره، فيرضى على من يستحق الرضا، ويثيبه ويكرمه ويدنيه؛ ويغضب على من يستحق الغضب، ويعاقبه ويهينه ويقصيه، فيعذب من يشاء، ويرحم من يشاء، ويعطى من يشاء، ويقرب من يشاء، ويقصى من يشاء، له دار عذاب، وهي النار، وله دار سعادة عظيمة، وهي الجنة.

فمن أبطل شيئًا من ذلك، أو جحده وأنكر حقيقته، فقد قدح في ملكه سبحانه وتعالى، ونفى عنه كماله وتمامه؛ وكذلك من أنكر عموم قضائه وقدره، فقد أنكر عموم ملكه وكماله؛ فيشهد المصلي مجد الربِّ تعالى في قوله: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾.

فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ ففيها سرُّ الخلق والأمر، والدنيا والآخرة، وهي متضمنة لأجلِّ الغايات، وأفضل الوسائل، فأجل الغايات عبوديته، وأفضل الوسائل إعانته؛ فلا معبود يستحق العبادة إلا هو، ولا معين على عبادته غيره، فعبادته أعلى الغايات، وإعانته أجلُّ الوسائل؛ وقد أنزل الله سبحانه وتعالى مائة كتاب وأربعة كتب، جمع معانيها في أربعة، وهي: التوراة، والإنجيل، والقرآن، والزبور؛ و جمع معانيها في القرآن، وجمع معانيه في المفصل، وجمع معانيه في الفاتحة، وجمع معانيها في: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾؛ وقد اشتملت هذه الكلمة على نوعي التوحيد: وهما توحيد الربوبية، وتوحيد الإلهية؛ وتضمنت التعبد باسم (الربِّ)، واسم (الله)، فهو يعبد بألوهيته، ويستعان بربوبيته، ويهدي إلى الصراط المستقيم برحمته، فكان أول السورة ذكر اسمه: (الله،

والرب، والرحمن) تطابقًا لأجل الطالب من عبادته وإعانته وهدايته؛ وهو المنفرد بإعطاء ذلك كله، لا يعين على عبادته سواه، ولا يهدي سواه.

ثم يشهد الداعي بقوله: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ شدة فاقته وضرورته إلى هذه المسألة، التي ليس هو إلى شيء أشد فاقة وحاجة منه إليها البتة؛ فإنه محتاج إليه في كل نَفَس وطرفة عين؛ وهذا المطلوب من هذا الدعاء، لا يتم إلا بالهداية إلى الطريق الموصل إليه سبحانه والهداية فيه، وهي هداية التفصيل، وخلق القدرة على الفعل وإرادته وتكوينه، وتوفيقه لإيقاعه له على الوجه المرضي المحبوب للرب سبحانه وتعالى؛ وحفظه عليه من مفسداته حال فعله، وبعد فعله.

ولما كان العبد مفتقرًا في كل حال إلى هذه الهداية في جميع ما يأتيه ويذره من أمور قد أتاها على غير الهداية، فهو يحتاج إلى التوبة منها، وأمور هُدي إلى أصلها دون تفصيلها، أو هُدي إليها من وجه دون وجه، فهو يحتاج إلى إتمام الهداية فيها ليزداد هدى، وأمور هو يحتاج إلى أن يحصل له من الهداية فيها بالمستقبل، مثل ما حصل له في الماضي، وأمور هو خال عن

اعتقاد فيها، فهو يحتاج إلى الهداية فيها، وأمور لم يفعلها، فهو يحتاج إلى فعلها على وجه الهداية، وأمور قد هُدي إلى الاعتقاد الحق والعمل الصواب فيها، فهو محتاج إلى الثبات عليها... إلى غير ذلك من أنواع الهدايات- فَرَضَ الله سبحانه عليه أن يسأله هذه الهداية، في أفضل أحواله، مرات متعددة في اليوم والليلة، ثم بيَّن أن أهل هذه الهداية هم المختصون بنعمته دون المغضوب عليهم، وهم الذين عرفوا الحقَّ ولم يتبعوه، ودون الضالين، وهم الذين عبدوا الله بغير علم؛ فالطائفتان اشتركتا في القول في خلقه وأمره وأسمائه وصفاته بغير علم.

فسبيل المنعَمِ عليه مغايِرة لسبيل أهل الباطل كلها، علمًا وعملًا.

فلما فرغ من هذا الثناء والدعاء والتوحيد، شُرِع له أن يطبع على ذلك بطابع من التأمين، يكون كالخاتم له، وافق فيه ملائكة السماء، وهذا التأمين من زينة الصلاة، كرفع اليدين الذي هو زينة الصلاة، واتباع للسنة، وتعظيم أمر الله؛ وعبودية اليدين، وشعار الانتقال من ركن إلى ركن.

ثم يأخذ في مناجاة ربه بكلامه، واستماعه من الإمام بالإنصات، وحضور القلب وشهوده لربيعِ القلوبِ، وشفاءِ الصدورِ، ونورِ البصائرِ، وحياةِ الأرواحِ، ولذّةِ النفوسِ، ورياضِ القلوبِ، وحادي الأرواحِ إلى بلادِ الأفراحِ، والمنادي بالمساء والصباحِ: يا أهلَ الفلاحِ، حيّ على الفلاحِ، وهو كلامُ ربِّ العالمين، فيحلّ به في ما شاء من روضاتٍ مونقاتٍ، وحدائقَ معجباتٍ، زاهية أزهارها، مونقة ثمارها، قد ذللتْ قطوفها تذليلًا، وسُهلت لمتناولها تسهيلًا، فهو يجتني من تلك الثمار خيرًا يُؤمر به، وشرًّا يُنهى عنه، وحكمةً وموعظةً، وتبصرةً وتذكرةً وعبرةً، وتقريرًا لحق، ودحضًا لباطل، وإزالةً لشبهةٍ، وجوابًا عن مسألةٍ، وإيضاحًا لمشكلٍ، وترغيبًا في أسباب فلاحٍ وسعادةٍ، وتحذيرًا من أسباب خسران وشقاوة، ودعوةً إلى هدى، فتنزل على القلوب نزولَ الغيثِ على الأرضِ التي لا حياة لها بدونه، ويحل منها محل الأرواح من أبدانها.

فأيُّ نعيمٍ وقرة عينٍ ولذة قلبٍ وابتهاج وسرور، لا يحصل له في هذه المناجاة، والربُّ تعالى مستمع لكلامه.

التكبير مع الركوع

ثمَّ يعود إلى تكبير ربّه ﷻ؛ فيجدد عهد التذكرة، كونه أكبر من كلِّ شيء بحق عبوديته، وما ينبغي أن يعامل به؛ ثمّ شرع له رفع اليدينِ عند الركوع تعظيمًا لأمرِ الله، وزينةً للصلاة، وعبودِيَّة خاصَّةً لليدين، كعبودية باقي الجوارح، واتباعًا لسنة رسول الله ﷺ، فهو حِلْيَةُ الصلاة، وزينتها، وتعظيمٌ لشعائرها.

وقد شرع له التكبير الذي هو في انتقالات الصلاة من رُكنٍ إلى ركن، كالتلبية في انتقالات الحاجِّ من مشعر إلى مشعر، فهو شعار الصلاة، كما أنَّ التلبية شعار الحج؛ ليعلم العبدُ أنَّ سرَّ الصلاةِ هو تعظيمُ الرَّبِّ تعالى وتكبيره بعبادته وحده.

ثم يركع حانيًا له ظهره خضوعًا لعظمته، وتذللًا لعزّته، واستكانةً لجبروته، مسبِّحًا له بذكر اسمه العظيم، فَنَزَّه عظمته عن حال العبد وذلّه وخضوعه، وقابل تلك العظمة بهذا الذلّ والانحناء والخضوع، قد طأطأ رأسه، وطوى ظهره، وربُّه فوقه يشاهده، ويرى خضوعه وذلّه، ويسمع كلامه، فهو رُكنُ تعظيمٍ وإجلالٍ؛ فسِرُّ الركوع تعظيم الربِّ جل جلاله بالقلب والقالب

والقول، ولهذا قال النبي ﷺ: **«فَأَمَّا الرُّكُوعُ فَعَظِّمُوا فِيهِ الرَّبَّ»**(١).

وتمامُ عبودية الركوع أن يتصاغرَ العبدُ ويتضاءل بحيث يمحو تصاغُرُه كلَّ تعظيم منه لنفسه، ويثْبت مكانه تعظيمه لربه، وكلما استولى على قلبه تعظيمُ الرب ازدادَ تصاغُرُه هو عند نفسه، فالركوع للقلب بالذاتِ والقصدِ، وللجوارح بالتَّبَعِ والتَّكْمُلة.

وأفضل أذكار الصلاة ذكر القيام، وأحسن هيئة المصلي هيئة القيام، فخصت بالحمد والثناء والمجد وتلاوة كلام الرب جل جلاله، ولهذا نُهي عن قراءة القرآن في الركوع والسجود؛ لأنهما حالتا ذل وخضوع وتطامن وانخفاض؛ ولهذا شرع فيهما من الذكر ما يناسب هيئتهما، فشُرع للراكع أن يذكر عظمة ربه في حال انخفاضه هو وتطامنه وخضوعه، وأنه سبحانه يوصف بوصف عظمته عما يضاد كبرياءه وجلاله وعظمته، فأفضل ما يقول الراكع على الإطلاق: سبحان ربي العظيم، فإن الله سبحانه أمر

---

(١) رواه مسلم (٤٧٩) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

العباد بذلك، وعيَّن المبلغ عنه، السفير بينه وبين عباده، هذا المحل لهذا الذكر، لما نزلت: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾، قال: «**اجْعَلُوهَا فِي رُكُوعِكُمْ**»(١).

الرفع من الركوع

ثم يرفع رأسه من الركوع، حتى يعود كل عظم إلى فقاره، وجُعل شعار هذا الركن حمد الله والثناء عليه، فافتتح هذا الشعار بقول المصلي: «**سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ**» أي: سمع سمْع قبول وإجابة، ثم شفع بقوله: «**رَبَّنَا، وَلَكَ الْحَمْدُ**»، ولا يهمل أمر هذه الواو في قوله: «**رَبَّنَا، وَلَكَ الْحَمْدُ**»؛ فإنه قد ندب الأمر بها في الصحيحين، وهي تجعل الكلام في تقدير جملتين قائمتين بأنفسهما، فإن قوله: «**رَبَّنَا**» متضمن في المعنى: أنت الربُّ والملك القيوم، الذي بيديه أزِمَّة الأمور، وإليه مرجعها؛ فعطف على هذا المعنى المفهوم من قوله: «**رَبَّنَا**» قوله: «**وَلَكَ الْحَمْدُ**»، فتضمن ذلك معنى قول الموحِّد: له الملك

(١) أحمد: ٤/ ١٥٥، وأبو داود (٨٦٩)، وابن ماجة (٨٨٧) عن عقبة ابن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصححه ابن حبان كما في (موارد الظمآن): ١/ ١٣٥، والحاكم (٨١٨، ٣٧٨٣) ووافقه الذهبي في الموضع الثاني.

وله الحمد(١).

ثم أخبر عن شأن هذا الحمد وعظمته قدرًا وصفة، فقال: «**مِلْءَ السَّمَوَاتِ، وَمِلْءَ الأَرْضِ، وَمِلْءَ مَا بَيْنَهُمَا، وَمِلْءَ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ**»(٢)، أي: قدر ملء العالم العلوي والسفلي والفضاء الذي بينهما، فهذا الحمد قد ملأ الخلق الموجود، وهو يملأ ما يخلقه الرب- تبارك وتعالى- بعد ذلك ما يشاؤه؛ فحمده قد ملأ كل موجود، وملأ ما سيوجد، فهذا أحسن التقديرين؛ وقيل: ما شئت من شيء وراء العالم، فيكون قوله: (**بَعْدُ**) للزمان على الأول، والمكان: على الثاني.

ثم أتبع ذلك بقوله: «**أَهْلُ الثَّنَاءِ وَالْمَجْدِ**» فعاد الأمر بعد الركعة إلى ما افتتح به الصلاة قبل الركعة من الحمد والثناء والمجد، ثم أتبع ذلك بقوله: «**أَحَقُّ مَا قَالَ الْعَبْدُ**» تقريرًا لحمده وتمجيده والثناء عليه، وأن ذلك أحق ما نطق به العبد، ثم أتبع ذلك بالاعتراف بالعبودية، وأن ذلك حكم عام لجميع العبيد،

---

(١) هذا، وقد ورد صحيحًا (ربنا لك الحمد) بدون الواو، فيجوز قوله، ولكن المعنى مع إثبات الواو أحسن كما تقدم.

(٢) رواه مسلم (٤٧٦) عن ابن أبي أوفى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

ثم عقب ذلك بقوله: «**لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ**»(١)؛ وكان ﷺ يقول ذلك بعد انقضاء الصلاة أيضًا(٢)؛ فيقوله في هذين الموضعين اعترافًا بتوحيده، وأن النعم كلها منه، وهذا يتضمن أمورًا؛ **أحدها** أنه المنفرد بالعطاء والمنع. **الثاني**: أنه إذا أعطى لم يطق أحد منع من أعطاه، وإذا منع لم يطق أحد إعطاء من منعه. **الثالث**: أنه لا ينفع عنده، ولا يخلص من عذابه، ولا يدني من كرامته جدود بني آدم وحظوظهم من الملك والرئاسة والغنى وطيب العيش وغير ذلك، إنما ينفعهم عنده التقرب إليه بطاعته وإيثار مرضاته.

ثم ختم ذلك بقوله: «**اللَّهُمَّ طَهِّرْنِي بِالثَّلْجِ وَالْبَرَدِ وَالْمَاءِ**

(١) رواه مسلم (٤٧٧) عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، (٤٧٨) عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) روى البخاري (٨٠٨)، ومسلم (٥٩٣) عَنْ وَرَّادٍ كَاتِبِ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ قَالَ: أَمْلَى عَلَيَّ الْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ فِي كِتَابٍ إِلَى مُعَاوِيَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقُولُ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ إِذَا سَلَّمَ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ، وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ؛ اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ».

الْبَارِدِ، اللَّهُمَّ طَهِّرْنِي مِنَ الذُّنُوبِ وَالْخَطَايَا، كَمَا يُنَقَّى الثَّوْبُ الأَبْيَضُ مِنَ الْوَسَخِ»(١)، وهذا نحو ما افتتح به الركعة في أول الاستفتاح، كما كان يختم الصلاة بالاستغفار، وكان الاستغفار في أول الصلاة ووسطها وآخرها، فاشتمل هذا الركن على أفضل الأذكار وأنفع الدعاء من حمده، وتمجيده، والثناء عليه، والاعتراف له بالعبودية والتوحيد، والتنصل إليه من الذنوب والخطايا؛ فهو ذكر مقصود في ركن مقصود، ليس بدون الركوع والسجود.

التكبير مع السجود

ثم يكبر ويخر لله ساجدًا، غير رافعٍ يديه؛ لأن اليدين تنحطان للسجود كما ينحط الوجه، فهما ينحطان لعبوديتهما، فأغنى ذلك عن رفعهما، ولذلك لم يشرع رفعهما، ثم رفع الرأس من السجود؛ لأنهما يرفعان معه كما يوضعان معه.

وشرع السجود على أكمل الهيئة وأبلغها في العبودية، وأعمها لسائر الأعضاء، بحيث يأخذ كل جزء من البدن بحظه

---

(١) زيادة في رواية لمسلم لحديث ابن أبي أوفى المتقدم.

من العبودية.

والسجود سِرُّ الصلاة وركنها الأعظم، وخاتمة الركعة، وما قبله من الأركان كالمقدمات له، فهو شبه طواف الزيارة في الحج؛ فإنه مقصود الحج، ومحل الدخول على الله وزيارته، وما قبله كالمقدمات له؛ ولهذا أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، وأفضل الأحوال له حال يكون فيها أقرب إلى الله، ولهذا كان الدعاء في هذا المحل أقرب إلى الإجابة.

ولما خلق الله سبحانه العبد من الأرض، كان جديرًا بأن لا يخرج عن أصله بل يرجع إليه إذا تقاضاه الطبع والنفس بالخروج عنه، فإن العبد لو ترك لطبعه ودواعي نفسه لتكبر وأشر، وخرج عن أصله الذي خلق منه، ولوثب على حق ربه من الكبرياء والعظمة، فنازعه إياهما، فأُمر بالسجود خضوعًا لعظمة ربه، وخشوعًا له، وتذللا بين يديه، وانكسارًا له؛ فيكون هذا الخشوع والخضوع والتذلل ردًّا له إلى حكم العبودية، ويتدارك ما حصل له من الهفوة والغفلة والإعراض الذي خرج به عن أصله، فتَمْثُل له حقيقة التراب الذي خلق منه، وهو يضع أشرف شيء منه وأعلاه، وهو الوجه، وقد صار أعلاه أسفله

خضوعًا بين يدي ربه الأعلى، وخشوعًا له، وتذللًا لعظمته، واستكانة لعزته؛ وهذا غاية خشوع الظاهر؛ فإن الله سبحانه خلقه من الأرض التي هي مذللة للوطء بالأقدام، واستعمله فيها، وردَّه إليها، ووعده بالإخراج منها، فهي أمه وأبوه، وأصله وفصله، فضمته حيًّا على ظهرها، وميتًا في بطنها، وجعلت له طهرًا ومسجدًا؛ فأمر بالسجود إذ هو غاية خشوع الظاهر، وأجمع العبودية لسائر الأعضاء، فيعفر وجهه في التراب استكانة وتواضعًا وخضوعًا وإلقاءً باليدين.

وكان النبي ﷺ لا يتقي الأرض بوجهه قصدًا، بل إذا اتفق له ذلك فعله؛ ولذلك سجد في الماء والطين، ولهذا كان من كمال السجود الواجب أنه يسجد على الأعضاء السبعة: الوجه، واليدين، والركبتين، وأطراف القدمين(١)؛ فهذا فرضٌ أمر الله به رسوله، وبلغه الرسول لأمته.

ومن كماله- الواجب أو المستحب- مباشرة مصلاه بأديم

(١) روى البخاري (٧٧٩)، ومسلم (٤٩٠) عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أُمِرْتُ أَنْ أَسْجُدَ عَلَى سَبْعَةِ أَعْظُمٍ: عَلَى الْجَبْهَةِ- وَأَشَارَ بِيَدِهِ عَلَى أَنْفِهِ- وَالْيَدَيْنِ، وَالرُّكْبَتَيْنِ، وَأَطْرَافِ الْقَدَمَيْنِ..» الحديث.

وجهه، واعتماده على الأرض بحيث ينالها ثقل رأسه، وارتفاع أسافله على أعاليه، فهذا من تمام السجود، ومن كماله أن يكون على هيئة يأخذ فيها كل عضو من البدن بحظه من الخضوع، فيقل بطنه عن فخذيه، وفخذيه عن ساقيه، ويجافي عضديه عن جنبيه، ولا يفرشهما على الأرض، ليستقل كل عضو منه بالعبودية؛ ولذلك إذا رأى الشيطان ابن آدم ساجدًا لله اعتزل ناحية يبكي، ويقول: يا ويله، أمر ابن آدم بالسجود، فسجد، فله الجنة، وأمرت بالسجود، فعصيت، فلي النار؛ ولذلك أثنى الله سبحانه على الذين يخرون عند سماع كلامه، وذم من لا يقع ساجدًا عنده، ولما علمت السحرة صدق موسى وكذب فرعون، خروا سُجَّدًا لربهم، فكانت تلك السجدة أول سعادتهم، وغفران ما أفنوا فيه أعمارهم من السحر.

ولذلك أخبر سبحانه عن سجود جميع المخلوقات له، فقال تعالى: ﴿ **وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ** ﴾ [**النحل**: ٤٩، ٥٠]، فأخبر عن إيمانهم بعلوه وفوقيته، وخضوعهم له بالسجود تعظيمًا وإجلالًا، وقال

تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ **[الحج: ١٨]**؛ فالذي حق عليه العذاب هو الذي لا يسجد له سبحانه، وهو الذي أهانه بترك السجود له، وأخبر أنه لا مكرم له، وقد هان على ربِّه حيث لم يسجد له، وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ﴾ **[الرعد: ١٥]**.

ولما كانت العبودية غاية كمال الإنسان وقربه من الله، بحسب نصيبه من عبوديته، وكانت الصلاة جامعة لمتفرق العبودية، متضمنة لأقسامها، كانت أفضل أعمال العبد، ومنزلتها من الإسلام بمنزلة عمود الفسطاط منه؛ وكان السجود أفضل أركانها الفعلية، وسرَّها الذي شرعت لأجله، وكان تكرره في الصلاة أكثر من تكرر سائر الأركان، وجعله خاتمة الركعة وغايتها، وشرع فعله بعد الركوع، فإن الركوع توطئة له، ومقدمة بين يديه، وشرع فيه من الثناء على الله ما يناسبه، وهو قول العبد: «**سُبْحَانَ رَبِّيَ الأَعْلَى**»؛ فهذا أفضل ما يقال فيه، ولم

يرد عن النبي ﷺ أمره في السجود بغيره حيث قال: «**اجْعَلُوهَا فِي سُجُودِكُمْ**».

ووصف الرب بالعلو في هذه الحال في غاية المناسبة لحال الساجد، الذي قد انحط إلى السفل على وجهه، فذكر علوَّ ربِّه في حال سقوطه، وهو كما ذكر عظمته في حال خضوعه في ركوعه، ونزَّه ربَّه عما لا يليق به مما يضاد عظمته وعلوه.

الجلوس بين السجدتين

ثم لما شرع السجود بوصف التكرار، لم يكن بد من الفصل بين السجدتين، ففصل بينهما بركن مقصود، شرع فيه من الدعاء ما يليق به ويناسبه، وهو سؤال العبد المغفرة والرحمة والهداية والعافية والرزق، فإن هذه تتضمن جلب خير الدنيا والآخرة، ودفع شرِّ الدنيا والآخرة؛ فالرحمة تحصل الخير، والمغفرة تقي الشر، والهداية توصل إلى هذا وهذا، والرزق إعطاء ما به قوام البدن من الطعام والشراب، وما به قوام الروح والقلب من العلم والإيمان؛ وجعل جلوس الفصل محلًا لهذا الدعاء لما تقدمه من رحمة الله، والثناء عليه، والخضوع له، فكان هذا وسيلة للداعي، ومقدمة بين يدي حاجته؛ فهذا الركن

مقصود الدعاء فيه، فهو ركن وُضع للرغبة، وطلب العفو والمغفرة والرحمة؛ فإن العبد لما أتى بالقيام والحمد والثناء والمجد، ثم أتى بالخضوع، وتنزيه الرب، وتعظيمه؛ ثم عاد إلى الحمد والثناء، ثم كمَّل ذلك بغاية التذلل والخضوع والاستكانة، بقي سؤال حاجته واعتذاره وتنصله؛ فشرع له أن يتمثل في الخدمة، فيقعد فعل العبد الذليل، جاثيًا على ركبتيه، كهيئة الملقي نفسه بين يدي سيده، راغبًا راهبًا معتذرًا إليه، مستعديًا إليه على نفسه الأمارة بالسوء.

ثم شرع له تكرير هذه العبودية مرة بعد مرة، إلى إتمام الأربع، كما شرع له تكرير الذكر مرة بعد مرة، لأنه أبلغ في حصول المقصود، وأدعى إلى الاستكانة والخضوع؛ وليستعد بالأول لتكميل ما بعده، ويجبر بما بعده ما قبله، وليشبع القلب من هذا الغذاء، وليأخذ زاده ونصيبه وافرًا من الدواء ليقاومه، فإنَّ منزلة الصلاة من القلب منزلة الغذاء والدواء، فإذا تناول الجائع الشديد الجوع من الغذاء لقمة و لقمتين، كان غناؤها عنه وسدّها من جوعه يسيرًا جدًّا، وكذلك المرض الذي يحتاج إلى قدرٍ معينٍ من الدواءِ، إذا أخذَ منه المريضُ قيراطًا من ذلك

لم يزل مرضه بالكلية، وأزال بحسبه. فما حصل الغذاء أو الشفاء للقلب بمثل الصلاة، وهي لصحته ودوائه بمنزلة غذاء البدن ودوائه.

الجلوس للتحيات

فلما أكمل ركوع الصلاة وسجودها وقراءتها وتسبيحها وتكبيرها، شُرع له أن يجلس في آخر صلاته جلسة المتخشع المتذلل المستكين، جاثيًا على ركبتيه، ويأتي في هذه الجلسة بأكمل التحيات وأفضلها، وهي: «**التحياتُ لله، والصلواتُ، والطيباتُ**»، وذلك عوضًا عن تحية المخلوق للمخلوق إذا واجهه أو دخل عليه؛ فإن الناس يحيون ملوكهم وأكابرهم بأنواع التحيات التي يُحيُون بها قلوبهم، فبعضهم يقول: أنعم صباحًا، وبعضهم يقول: لك البقاء والنعمة، وبعضهم يقول: أطال الله بقاءك، وبعضهم يقول: تعيش ألف عام، وبعضهم يسجد للملوك، وبعضهم يسلم، فتحياتهم بينهم تتضمن ما يحبه المحيَّى من الأقوال والأفعال، والمشركون يحيون أصنامهم؛ قال الحسن: كان أهل الجاهلية يتمسحون بأصنامهم، ويقولون: لك الحياة الدائمة.

فلما جاء الإسلام أمروا أن يجعلوا أطيب تلك التحيات وأزكاها وأفضلها لله؛ فالتحية هي تحية من العبد للحي الذي لا يموت، وهو سبحانه أولى بتلك التحيات من كل ما سواه؛ فإنها تتضمن الحياة والبقاء والدوام، ولا يستحق أحد هذه التحيات إلا الحي الباقي الذي لا يموت، ولا يزول ملكه.

وكذلك قوله: «**والصلوات**» فإنه لا يستحق أحد الصلاة إلا الله ﷻ، والصلاة لغيره من أعظم الكفر والشرك به.

وكذلك قوله: «**والطيبات**»، هي صفة الموصوف المحذوف، أي: الطيبات من الكلمات والأفعال والصفات والأسماء لله وحده، فهو طيب، وأفعاله طيبة، وصفاته أطيب شيء، وأسماؤه أطيب الأسماء، واسمه الطيب، ولا يصدر عنه إلا طيب، ولا يصعد إليه إلا طيب، ولا يقرب منه إلا طيب، وإليه يصعد الكلم الطيب، وفعله طيب، والعمل الطيب يعرج إليه؛ فالطيبات كلها له، ومضافة إليه، وصادرة عنه، ومنتهية إليه؛ قال النبي ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا**»[١]، ولا

(١) جزء من حديث رواه مسلم (١٠١٥) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

يجاوره من عباده إلا الطيبون، كما يقال لأهل الجنة: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣]؛ وقد حكم سبحانه في شرعه وقدره أن الطيبات للطيبين.

فإذا كان هو سبحانه الطيب على الإطلاق، فالكلمات الطيبات، والأفعال الطيبات، والصفات الطيبات، والأسماء الطيبات، كلها له سبحانه، لا يستحقها أحد سواه، بل ما طاب شيء قط إلا بطيبته سبحانه، فطِيب كل ما سواه من آثار طيبته، ولا تصلح هذه التحية الطيبة إلا له.

وأيضًا فمعاني الكلماتِ الطَّيبات لله وحدَه؛ فإنّ الكلماتِ الطَّيباتِ تتضمَّنُ تسبيحَهُ، وتحميدَهُ، وتكبيرَهُ، وتمجيدَه، والثناءَ عليه بآلائه وأوصافِهِ، فهذهِ الكلماتُ الطيباتُ التي يُثْنَى عليه بها ومعانيها لهُ وحدَهُ، لا يَشْرَكُهُ فيها غيره، كـ «**سبحانَ اللَّه، والحمدُ للَّه، ولا إله إلا اللَّه، واللَّه أكبر**»؛ فتأمّل هذه الكلمات التي هي أطيب الكلمات بعد القرآن كيف لا تنبغي إلا لله، فإنَّ «**سبحان اللَّه**» تتضمّنُ تنزيهَه عن كلّ نقصٍ وعيبٍ وسوءٍ، وعن خصائصِ المخلوقين وشَبَهِهِمْ؛ و «**الحمد للَّه**» تتضمَّن إثبات كلّ كمال له قولًا وفعلًا ووصفًا، علَى أتم الوجوه وأكملها، أزلًا

وأبدًا، و «**لا إله إلا الله**» تتضمن انفراده بالإلهية، وأن كلَّ معبود سواه فباطل، وأنه وحده الإله الحق، وأنه من تأله غيرَهُ فهو بمنزلة من اتَّخذ بيتًا من بيوت العنكبوت، يأوي إليه ويسكنه من الحرّ والبرد، فهل يغني عنه ذلك شيئًا؟

«**والله أكبر**» تتضمن أنه أكبر من كلِّ شيء، وأجلّ، وأعظم، وأعزُّ، وأقوى، وأقدر، وأعلم، وأحكم، فهذه الكلمات الطيبات لا تصلح هي ومعانيها إلا لله وحده.

ولَمَّا كانت الصلاةُ مشتملةً على عمل صالحٍ، وكلمٍ طيبٍ، والكلمُ الطيّبُ إليه يصعد، والعملُ الصالحُ يرفعه، ناسب ذكرُ هذا عند انتهاءِ الصلاةِ وقت رفعها إلى الله تعالى.

فلمّا أتى بهذا الثناء على الرَّبِّ تعالى، التفتَ إلى شأنِ الرسولِ ﷺ الذي حصلَ هذا الخير على يديه، ولما كان السلام من أنواع التحية، وكان المسلِّم داعيًا لمن يحييه، وكان الله سبحانه هو الذي يُطلب منه السلام لعباده الذين اختصهم بعبوديته، وارتضاهم لنفسه؛ شرع أن يبدأ بأكرمهم عليه، وأحبهم إليه، وأقربهم منه منزلة؛ فسلَّم عليه أتمَّ سلام، معرَّفٍ باللام التي للاستغراقِ، مقرونًا بالرحمةِ والبركة؛ ثمَّ انتقلَ إلى

السَّلام على نفسهِ، وعلى سائرِ عبادِ اللهِ الصالحين، وبَدأ بنفسهِ لأنّه أهمُّ، والإنسانُ يبدأ بنفسه، ثمّ بمنْ يعول.

ثم ختم هذا المقام بعقد الإسلام، وهو التشهد بشهادة الحقِّ، التي هي أولُ الأمر وآخره، وعندها كلُّ الثناء، والتشهد في هذه التحية بالشهادتين، اللتين هما مفتاح الإسلام، فشرع أن يكون خاتمة الصلاة، فدخل فيها بالتكبير، والحمد والثناء، والتمجيد، وتوحيد الربوبية والإلهية، وختمها بشهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله.

وشرعت هذه التحية في وسط الصلاة، إذا زادت على ركعتين، تشبيها لها بجلسة الفصل بين السجدتين، وفيها مع الفصل راحة للمصلي لاستقباله الركعتين الآخرتين بنشاط وقوة، بخلاف ما إذا والى بين الركعات، ولهذا كان الأفضل في النفل مثنى مثنى، وإن تطوع بأربع جلس في وسطهن.

الصلاة على النبي ﷺ

والتحيَّاتِ في آخِر الصّلاة جعِلَتْ بمنزِلَةِ خُطْبَةِ الحاجَةِ أمامها، فإنَّ المصلِّي إذا فرغَ من صلاتِهِ، جَلَس جِلْسةَ الرَّاغِب الرَّاهِب، يسْتَعْطي من رَبِّه ما لا غِنَى به عَنْه، فشُرِعَ له أمامَ

اسْتِعطائِهِ كلمات التحيَّات، مقدِّمة بين يدي سؤالِهِ، ثم يُتْبِعُها بالصلاة على من نالَت أمَّتُهُ هذه النعمة على يَدِهِ وسعادَتِه؛ وهي من أجلِّ أدعيةِ العبد وأنفعها له في دنياه وآخرته، فكأنَّ المُصَلِّي توسَّلَ إلى اللهِ سُبْحانَهُ بعبوديّتِهِ، ثم بالثناءِ عليه، والشهادَة له بالوحدانِية، ولرَسوله بالرِّسالة، ثم الصلاة على رسوله، ثم قيل لَه: تخيَّر من الدُّعاء أحبّه إليك، فذاك الحقُّ الذي عَلَيْكَ، وهذا الحق الذي لَكَ.

وشُرِعَتِ الصَّلاة على آله مع الصَّلاةِ عليه، تكميلًا لِقُرَّةِ عَيْنِه بإكرام آله والصَّلاةِ عَلَيْهِم، وأن يُصَلَّى عليه وعلى آله، كما صُلِّي على أبِيهِ إبراهيم وآلِهِ، والأنبياءُ كلُّهم بعد إبراهيم من آلِهِ، ولذلك كان المطلوبُ لِرَسول الله ﷺ صلاةً مثل الصلاة على إبراهيمَ، وعلى جميع الأنبياء بعدَهُ وآلِهِ المؤمنين، فَلِهذا كانتْ هذه الصلاة أكْمل ما يُصَلَّى على رسولِ اللهِ ﷺ بها وأفْضَلَ.

فإذا أتى بها المصلِّي، أُمِرَ أن يَسْتَعِيذَ باللهِ من مجامِعِ الشَّرِّ كلِّه(١)، فإنَّ الشَّرَّ إمَّا عذابُ الآخِرَةِ، وإما سَبَبُهُ، فليس الشَّرُّ إلا

(١) روى مسلم (٥٨٨) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِذَا تَشَهَّدَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْتَعِذْ بِاللهِ مِنْ أَرْبَعٍ؛ يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ=

العذاب وأسبابه؛ والعذابُ نَوْعان: عذابٌ في البَرْزَخِ، وعذابٌ في الآخِرَة؛ وأسبابُهُ الفِتْنَةُ، وهو نَوْعان: كُبرى، وصُغْرى؛ فالكبرى: فتنة الدجال وفتنة الممات؛ والصُّغرى: فتنة الحياة التي يُمْكِنُ تداركُها بالتَّوبَة، بخلافِ فِتْنَةِ المَمَاتِ وفِتْنَةِ الدَّجَالِ، فإنَّ المفْتُونَ فيهِما لا يتداركُها. ثُمَّ شَرعَ له من الدُّعاءِ ما يختارُهُ من مصالحِ دُنياه وآخِرَتِه، والدُّعاءُ في هذا المحلِّ قَبْلَ السَّلامِ أفْضَلُ من الدُّعاء بعد السَّلامِ وأنْفَعُ للدَّاعي، وذَلِكَ أنَّ المُصَلِّي قِبْلَ سَلامِهِ في محلِّ المُناجاة والقُرْبَة بين يَدَيّ رَبِّهِ، فسؤالُهُ في هذا الحالِ أقربُ إلى الإجابَةِ من سؤالِهِ بعد انصرافِهِ من بَيْنَ يَدَيْهِ.

وَتَحْلِيلُهَا التَّسْلِيمُ

أمَّا السلام من الصلاة، فإنّما هو عَلَمٌ على التحليلِ منها، والانْفصالِ عنْها، وقدْ أخبرَ رسول الله عن ذلك فقال: «**وَتَحْرِيمُهَا التَّكْبِيرُ، وَتَحْلِيلُهَا التَّسْلِيمُ**»(١).

= عَذَابِ جَهَنَّمَ، وَمِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ، وَمِنْ شَرِّ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ».

(١) رواه أحمد: ١/ ١٢٣، ١٢٩، وأبو داود (٦١، ٦١٨)، والترمذي (٣)، وابن ماجة (٢٧٥) عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

والسلام اسم من أسْماء الله تبارك وتعالى، وهذا دليلٌ على شرفِ الصلاة، وجليلِ شأنها، ورفيع مكانها؛ لأنَّ المصلي افتتحها باسمه تبارك وتعالى، وختمها باسمه، فيكون ذاكرًا لاسم ربِّه أول الصلاة وآخرها، فأولها باسمه وآخرها باسمه، فدخلَ فيها باسمه، وخرج منها باسمه، مع ما في اسم السلام من الخاصية والحكمة المناسبة لانصراف المُصَلِّي من بين يدي الله تعالى، فإن المصلِّي ما دام في صلاته بين يدي ربه فهو في حماه الذي لا يستطيعُ أحدٌ أن يخفِرَهُ، بل هو في حِمىً من جميع الآفات والشرور، فإذا انصرف من بين يديه تبارك وتعالى ابتدرتْهُ الآفات والبلايا والمحن، وتعرضَت له من كل جانب، وجاءه الشيطان بمصائده وجنده، فهو متعرِّضٌ لأنواع البلايا والمحن، فإذا انصرف من بين يدي الله مصحوبًا بالسَّلام،لم يزل عليه حافظٌ من الله إلى وقت الصلاة الأخرى؛ وكان من تمام النعمة عليه أن يكون انصرافُهُ من بين يدي ربِّه بسلام يستصحُبُه، ويدومُ له، ويبقى معه.

فَتَدَّبر هذا السِّرَّ الذي لو لم يكن في هذا التعليق غيره لكان كافيًا؛ فكيف وفيه من الأسرار والفوائد ما لا يوجدُ عندَ

أبناء الزمان.

فختمت الصلاة بالتسليم، وجعل تحليلا لها يخرج به المصلي منها، وجعل هذا التحليل دعاء الإمام لمن وراءه بالسلامة، التي هي أصل الخير وأساسه؛ فشرع لمن وراءه أن يتحلل بمثل ما تحلل به الإمام، وفي ذلك دعاء له وللمصلين معه بالسلام، ثم شرع ذلك لكل مصلٍّ، وإن كان منفردًا.

فلا أحسن من هذا التحليل للصلاة، وكما أنه لا أحسن من كون التكبير تحريمًا لها، فتحريمها تكبير الرب تعالى، الجامع لإثبات كل كمال له، وتنزيه عن كل نقص وعيب، وإفراده وتخصيصه بذلك، وتعظيمه وإجلاله؛ فالتكبير يتضمن تفاصيل أفعال الصلاة وأقوالها وهيئاتها، فالصلاة من أولها إلى آخرها تفصيل لمضمون (الله أكبر)؛ وأيُّ تحريم أحسن من هذا التحريم، المتضمن للإخلاص والتوحيد؛ وهذا التحليل المتضمن الإحسان إلى إخوانه المؤمنين، فافتتحت بالإخلاص، وختمت بالإحسان.

فالصلاة وضعت على هذا النحو، وهذا الترتيب، لا يمكن أن يحصل ما ذكرناه من مقاصدها- التي هي جزء يسير من

قدرها وحقيقتها- إلا مع الإكمال والإتمام والتمهل الذي كان رسول الله ﷺ يفعله، ومحال حصول ما ذكرناه مع النقر والتخفيف الذي يرجع إلى شهوة الإمام والمأمومين، ومن أراد أن يصلي هذه الصلاة الخاصة فلا بد له من مزيد تطويل(١).

هذا، والله المسؤول أن يجعلنا من أهل الإيمان الذين لهم حظ وافر من قرة العين في الصلاة.. إنه ولي ذلك والقادر عليه.

إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر

تلك الصلاة التي تحفها تلكم الآداب، يكون أثرها دائم مع صاحبها، فتأمره وتنهاه؛ قال الله جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [**العنكبوت: ٤٥**]، هذا خَبَرٌ مِن الله عَزَّ وَجَلَّ مؤكَّد بـ (إِنَّ)؛ قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: يعني أن الصلاة تشتمل على شيئين: **الأول**: على ترك الفواحش والمنكرات، أي: مواظبتها تحمل على ترك ذلك؛ وروى البزار عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قَالَ رَجُلٌ للنَّبِيِّ ﷺ: إِنَّ

(١) انظر (الصلاة) لابن القيم: من ص ١٤١ – ١٥٤ بشيء من الاختصار والتصرف والإضافة.

فُلَانًا يُصَلِّي بِاللَّيْل فَإِذَا أَصْبَحَ سَرَقَ! قال: «**سَيَنْهَاهُ مَا يَقُولُ**»؛ ورواه أحمد عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: إِنَّ فُلَانًا يُصَلِّي بِاللَّيْلِ، فَإِذَا أَصْبَحَ سَرَقَ! قَالَ: «**إِنَّهُ سَيَنْهَاهُ مَا يَقُولُ**»[(١)]؛ **الثاني**: وتشتمل الصلاة أيضًا على ذكر الله تعالى، وهو المطلوب الأكبر، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ أي: أعظم من الأول. انتهى المراد منه.

يوضح ذلك شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ فيقول: الْحَسَنَاتُ تُعَلَّلُ بِعِلَّتَيْنِ: إحْدَاهُمَا: مَا تَتَضَمَّنُهُ مِنْ جَلْبِ الْمَصْلَحَةِ وَالْمَنْفَعَةِ؛ وَالثَّانِيَةُ: مَا تَتَضَمَّنُهُ مِنْ دَفْعِ الْمَفْسَدَةِ وَالْمَضَرَّةِ؛ وَكَذَلِكَ السَّيِّئَاتُ تُعَلَّلُ بِعِلَّتَيْنِ: إحْدَاهُمَا: مَا تَتَضَمَّنُهُ مِنْ الْمَفْسَدَةِ وَالْمَضَرَّةِ. وَالثَّانِيَةُ: مَا تَتَضَمَّنُهُ مِنْ الصَّدِّ عَنْ الْمَنْفَعَةِ وَالْمَصْلَحَةِ؛ مِثَالُ ذَلِكَ قَوْله تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ﴾، فَبَيَّنَ الْوَجْهَيْنِ

(١) حديث جابر رواه البزار (٧٢١، ٧٢٢ – كشف) وقال الهيثمي في المجمع: ٢/٢٥٨: رجاله ثقات؛ وحديث أبي هريرة رواه أحمد: ٢/٤٤٧، والبزار (٧٢٠)، والطحاوي في مشكل الآثار (٢٠٥٦)، وابن حبان (٢٥٦٠)، وإسناده صحيح.

جَمِيعًا، فَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ بَيَانٌ لِمَا تَتَضَمَّنُهُ مِنْ دَفْعِ الْمَفَاسِدِ وَالْمَضَارِّ؛ فَإِنَّ النَّفْسَ إِذَا قَامَ بِهَا ذِكْرُ اللهِ وَدُعَاؤُهُ- لَا سِيَّمَا عَلَى وَجْهِ الْخُصُوصِ- أَكْسَبَهَا ذَلِكَ صِبْغَةً صَالِحَةً تَنْهَاهَا عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ، كَمَا يُحِسُّهُ الْإِنْسَانُ مِنْ نَفْسِهِ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة:٤٥]؛ فَإِنَّ الْقَلْبَ يَحْصُلُ لَهُ مِنْ الْفَرَحِ وَالسُّرُورِ وَقُرَّةِ الْعَيْنِ، مَا يُغْنِيهِ عَنْ اللَّذَّاتِ الْمَكْرُوهَةِ، وَيَحْصُلُ لَهُ مِنْ الْخَشْيَةِ وَالتَّعْظِيمِ لِلَّهِ وَالْمَهَابَةِ؛ وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْ رَجَائِهِ وَخَشْيَتِهِ وَمَحَبَّتِهِ نَاهٍ يَنْهَاهُ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ بَيَانٌ لِمَا فِيهَا مِنْ الْمَنْفَعَةِ وَالْمَصْلَحَةِ، أَيْ: ذِكْرُ اللهِ الَّذِي فِيهَا أَكْبَرُ مِنْ كَوْنِهَا نَاهِيَةً عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ؛ فَإِنَّ هَذَا هُوَ الْمَقْصُودُ لِنَفْسِهِ، كَمَا قَالَ: ﴿إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾، وَالْأَوَّلُ تَابِعٌ، فَهَذِهِ الْمَنْفَعَةُ وَالْمَصْلَحَةُ أَعْظَمُ مِنْ دَفْعِ تِلْكَ الْمَفْسَدَةِ؛ وَلِهَذَا كَانَ الْمُؤْمِنُ الْفَاسِقُ يَئُول أَمْرُهُ إِلَى الرَّحْمَةِ، وَالْمُنَافِقُ الْمُتَعَبِّدُ أَمْرُهُ صَائِرٌ إِلَى الشَّقَاءِ، فَإِنَّ الْإِيمَانَ بِاَللَّهِ وَرَسُولِهِ هُوَ جِمَاعُ

السَّعَادَةِ وَأَصْلُهَا(١).

قال أبو العالية: إن الصلاة فيها ثلاث خلال، فكل صلاة لا يكون فيها شيء من هذا الخلال فليست بصلاة: الإخلاص، والخشية، وذكر الله؛ فالإخلاص يأمره بالمعروف، والخشية تنهاه عن المنكر، وذكر الله القرآن يأمره وينهاه(٢).

فيتضح من ذلك أن الصلاة التي تنهى عن الفحشاء والمنكر هي تلكم الصلاة التي قدمنا تفصيلًا لها، والتي تكون لصاحبها قرة عين؛ ولذلك روى ابن جرير والطبراني والبيهقي عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: من لم تأمره صلاته بالمعروف، وتنهه عن المنكر، لم يزدد من الله إلا بعدًا(٣).

اللهم أعنا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك،

واجعل اللهم الصلاة قرة عين لنا؛ آمين،

وصلى الله وسلم وبارك على النبي محمد وعلى آله.

---

(١) مجموع الفتاوى: ٢٠/ ١٩٢، ١٩٣.

(٢) رواه ابن أبي حاتم: ٩/ ٣٠٦٦.

(٣) رواه ابن جرير: ٢٠/ ٩٩، والطبراني في الكبير: ٩/ ١٠٣ (٨٥٤٢)، والبيهقي في الشعب (٣٢٦٤)، وإسناده صحيح.